الصَّمْتُ؛ تَرَفُّعٌ وَحِكْمَةٌ

الْخُطْبَةُ الْأُولَى:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَاللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَعَلَى مَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. **أَمَّا بَعْدُ**: فَأُوصِيكُمْ **عِبَادَ اللَّهِ** وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ، قَالَ جَلَّ فِي عُلَاهُ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا**﴾[١]. **أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ:** خُلُقٌ حَمِيدٌ، وَفِعْلٌ سَدِيدٌ، جَعَلَهُ اللَّهُ حِكْمَةً لِمَنْ رَجَحَ عَقْلُهُ، وَحِرْزًا لِمَنْ كَثُرَ عِلْمُهُ، وَأَمَانًا لِمَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ، إِنَّهُ الصَّمْتُ، تَاجُ الْحُكَمَاءِ، وَشِيمَةُ الْعُقَلَاءِ، وَدَأْبُ الْأَقْوِيَاءِ، وَهَدْيُ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَدْ: "**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُطِيلُ الصَّمْتَ**"[٢]. وَجَعَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الصَّمْتَ فِي مَحَلِّهِ مِنْ دَلَائِلِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[٣]، فَالصَّمْتُ هُوَ خُلَاصَةُ وَصَايَا أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "**تَعَلَّمُوا الصَّمْتَ كَمَا تَتَعَلَّمُونَ الْكَلَامَ**"[٤]، وَقِيلَ: "أَجْمَعَتِ الْحُكَمَاءُ عَلَى أَنَّ رَأْسَ الْحِكْمَةِ الصَّمْتُ"[٥]، فَالْمُؤْمِنُ الْفَطِنُ، يَعْرِفُ مَتَى يَصْمُتُ، وَمَتَى يَتَكَلَّمُ، فَالصَّمْتُ يُحْمَدُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْكَلَامِ مَنْفَعَةٌ رَاجِحَةٌ، أَوْ مَصْلَحَةٌ بَيِّنَةٌ، أَوْ خَيْرٌ ظَاهِرٌ، وَيُذَمُّ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ**

النَّاسِ﴾[٦]، وَلَمَّا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ: ذَكَرَ جُمْلَةً مِنْهَا ثُمَّ قَالَ: «**وَخَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ: الصَّمْتُ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ**»[٧]. فَمَا أَكْثَرَ مَا يَنْدَمُ الْإِنْسَانُ عَلَى كَلَامِهِ، وَمَا أَقَلَّ مَا يَنْدَمُ عَلَى صَمْتِهِ! إِذِ الصَّمْتُ زَيْنٌ لِمَنْ يَعْلَمُ، وَسِتْرٌ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ، وَهُوَ فِي لَحَظَاتِ التَّفَكُّرِ عِبَادَةٌ وَقُرْبَةٌ، وَفِي الْجِدَالِ الْعَقِيمِ قُوَّةٌ وَثَبَاتٌ، وَفِي حَضْرَةِ الْكِبَارِ وَقَارٌ وَهَيْبَةٌ، وَبَيْنَ يَدَيِ الْوَالِدَيْنِ بِرٌّ وَرَحْمَةٌ، وَعِنْدَ الْخِلَافِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وِقَايَةٌ مِنَ الشِّقَاقِ وَالْخُصُومَةِ، وَفِي سَائِرِ الْعَلَاقَاتِ الْأُسَرِيَّةِ حِفْظٌ لِلْوُدِّ وَالْمَحَبَّةِ، أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿**فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ**﴾[٨]، فَإِنَّهُ لَمْ يُظْهِرْ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ أَلَمٍ وَعِتَابٍ، حِفَاظًا عَلَى لُحْمَةِ الْأُخُوَّةِ، وَذَلِكَ عَيْنُ الْحِكْمَةِ. **عِبَادَ اللَّهِ:** إِنَّ الْمُؤْمِنَ الْحَكِيمَ، إِذَا خُوطِبَ بِسُوءٍ أَوْ شَرٍّ؛ مَلَكَ نَفْسَهُ، وَحَفِظَ لِسَانَهُ، عَمَلًا بِقَوْلِ رَبِّهِ عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُفْلِحِينَ: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**﴾[٩]، فَالصَّمْتُ لَيْسَ عَجْزًا وَلَا هَزِيمَةً، بَلْ هُوَ تَرَفُّعٌ وَفَضِيلَةٌ، وَدَلِيلٌ عَلَى الْقُوَّةِ، وَمَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْهَيْبَةِ، وَهُوَ عُزُوفٌ عَنِ الْبَاطِلِ، وَسُمُوٌّ عَنِ الرَّذَائِلِ، وَارْتِقَاءٌ فَوْقَ مُسْتَوَى الْكَلَامِ، وَتَمَسُّكٌ بِأَخْلَاقِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ**»[١٠]؛ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ مَنْ يَخْتَارُ صَمْتَهُ كَمَا يَخْتَارُ كَلِمَاتِهِ؛ مُرَاعَاةً لِمَبَادِئِ دِينِهِ، وَقِيَمِ مُجْتَمَعِهِ، وَمَصَالِحِ وَطَنِهِ، فَيَسْتَحْضِرُ فِي كَلَامِهِ وَكِتَابَاتِهِ وَرُدُودِهِ؛ مَا يُعْلِي مِنْ مَكَانَةِ بَلَدِهِ، وَيَصْمُتُ عَمَّا قَدْ يَضُرُّ بِسُمْعَتِهِ، فَلَيْسَ كُلُّ كَلَامٍ يَسْتَحِقُّ رَدًّا، وَلَا كُلُّ مَوْقِفٍ يَحْتَاجُ جَوَابًا، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[١١].

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَقَّ حَمْدِهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ مِنْ بَعْدِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ الصَّمْتَ سَبِيلُ النَّجَاةِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ**»(١٢). وَبِالصَّمْتِ يَنَالُ الْمَرْءُ رَحْمَةَ اللَّهِ، اسْتِجَابَةً لِدُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ، الْقَائِلِ ﷺ: «**رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا تَكَلَّمَ فَغَنِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ**»(١٣). فَالصَّمْتُ مِفْتَاحُ السَّلَامَةِ(١٤)، وَهُوَ دَاعٍ إِلَى الْمَحَبَّةِ، وَمُغْلِقٌ لِبَابِ الْفِتْنَةِ، فَكَمْ مِنْ صَمْتٍ أَطْفَأَ شَرَارَةَ الْمُخَاصَمَاتِ، وَكَمْ مِنْ كَلِمَةٍ أَوْقَدَتْ نَارَ الْخِلَافَاتِ، فَإِذَا عَلَا مَوْجُ الْغَضَبِ؛ فَاجْنَحْ إِلَى بَرِّ السُّكُوتِ، أَلْزِمْ بِذَلِكَ نَفْسَكَ، وَاجْعَلْهُ أُسْلُوبَكَ فِي أُسْرَتِكَ وَوَظِيفَتِكَ، وَبَيْعِكَ وَشِرَائِكَ، وَغُدُوِّكَ وَرَوَاحِكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ**»(١٥)، فَالصَّمْتُ أَبْلَغُ إِجَابَةٍ، تُجِيبُ بِهَا السُّفَهَاءَ وَالْمُسْتَفِزِّينَ، كَمَا قِيلَ:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ ** فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ(١٦)

كَيْفَ لَا؟ وَقَدْ سَبَّ رَجُلٌ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ سَاكِتٌ، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَّ عَلَيْهِ؛ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَسُبُّنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ قُمْتَ! فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّهُ كَانَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَلَيْهِ، يَقُولُ: كَذَبْتَ، فَلَمَّا تَكَلَّمْتَ قَعَدَ الشَّيْطَانُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَجْلِسَ**»(١٧). فَاللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ إِذَا تَكَلَّمَ غَنِمَ، وَإِذَا سَكَتَ سَلِمَ، وَصَلِّ يَا رَبَّنَا عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ الْأَكْرَمِينَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا بِكَ مُؤْمِنِينَ،

وَلَكَ عَابِدِينَ، وَإِلَيْكَ مُنِيبِينَ، وَبِوَالِدِينَا بَارِّينَ، وَارْحَمْهُمْ كَمَا رَبَّوْنَا صِغَارًا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِكُلِّ مَنْ وَقَفَ لَكَ وَقْفًا ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، وَطَمَعًا فِي جَنَّاتِكَ، وَتَقَبَّلْ صَدَقَتَهُ، وَأَخْلِفْ عَلَيْهِ نَفَقَتَهُ، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ أَدِمْ عَلَى دَوْلَةِ الْإِمَارَاتِ الِاسْتِقْرَارَ، وَالرُّقِيَّ وَالِازْدِهَارَ، وَأَتِمَّ اللَّهُمَّ الْعَافِيَةَ عَلَيْنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي أَرْزَاقِنَا، وَأَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا.

اللَّهُمَّ وَفِّقْ رَئِيسَ الدَّوْلَةِ، الشَّيْخَ مُحَمَّد بن زَايد، وَنُوَّابَهُ وَإِخْوَانَهُ حُكَّامَ الْإِمَارَاتِ، وَوَلِيَّ عَهْدِهِ الْأَمِينَ؛ لِمَا تُحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ.

اللَّهُمَّ ارْحَمِ الشَّيخ زَايد، وَالشَّيخ رَاشِد، وَالْقَادَةَ الْمُؤَسِّسِينَ، وَأَدْخِلْهُمْ بِفَضْلِكَ فَسِيحَ جَنَّاتِكَ، وَاشْمَلْ شُهَدَاءَ الْوَطَنِ بِرَحْمَتِكَ وَغُفْرَانِكَ.

اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ: الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتَ.

عِبَادَ اللَّهِ: اذْكُرُوا اللَّهَ الْعَظِيمَ الْجَلِيلَ يَذْكُرْكُمْ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ يَزِدْكُمْ. وَأَقِمِ الصَّلَاةَ.

---

(١) الأحزاب: ٧٠.
(٢) المعجم الكبير للطبراني: ١٩٩٩.
(٣) متفق عليه.
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر: ١٢٤/٤٧.
(٥) الصمت وآداب اللسان، ص: ٢٧٨. والقائل هو وهب بن منبه.
(٦) النساء: ١١٤.
(٧) المستدرك على الصحيحين: ٣١٩/٤.
(٨) يوسف: ٧٧.
(٩) المؤمنون: ٣
(١٠) الأدب المفرد للبخاري: ٣٣٢، والترمذي: ٢٠٩٢.
(١١) النساء: ٥٩.
(١٢) الطبراني في الكبير: ٧٤١.
(١٣) شعب الإيمان: ٤٥٨٩.
(١٤) حسن السمت في الصمت، ص: ١٠٠.
(١٥) الأدب المفرد: ٢٤٥.
(١٦) الحلم لابن أبي الدنيا، ص: ٣٤.
(١٧) المعجم الوسط للطبراني: ٧٢٣٩، وشعب الإيمان: ٧٧١٦. ومسند الشهاب: ٨٢٠.